الباب الاول

عوامل الحضارة(*)

تعريف — العوامل البيولوجية — والجغرافية — والاقتصادية — والجنسية — والنفسية — أسباب انحلال الحضارات

الحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ؛ وهى تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف ، تحررت فى نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفكّ الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضىّ فى طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها .

والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هى التى تستحث خطاها أو تعوق مسراها ، وأولها العوامل البيولوجية ، ذلك أن الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد ، فتيار الجليد قد يعاود الأرض فى أى وقت فيغمرها من جديد ، بحيث يطمس منشئات الإنسان بركام من ثلوج وأحجار ، ويحصر الحياة فى نطاق ضيق من سطح هـــذه الأرض ؛ وشيطان الزلازل الذى نبنى حواضرنا فى غفوته ، ربما تحرك حركة خفيفة بكتفيه فابتلعنا فى جوفه غير آبه .

وثانيها العوامل الجغرافية ، فحرارة الأقطار الاستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر ، لا تهيئ للمدنية أسبابها ، فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض ، وما تُعرف به من نضوج مبكّر وانحلال

(*) سيجد القارئ فى نهاية هذا الكتاب بياناً بالمراجع التى تشير إليها الأرقام التى يصادفها أثناء القراءة فى أعالى الكلمات .

وسنستخدم فى هذا الكتاب كلمتى « مدنية » و « حضارة » بمعنى واحد . (المعرب)

مبكّر ، من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التى هى قوام المدنية ، ويستنفدها جميعاً فى إشباع الجوع وعملية التناسل ، بحيث لا تَذَرُ للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه فى ميدان الفنون وجمال التفكير ؛ والمطر كذلك عامل ضرورى إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ، ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم فقد بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان والعمران ، مثل نينوى وبابل ؛ أو قد تسرع الخطى نحو القوة والثراء ، بمدائن هى — فيما يبدو للعين — بعيدة عن الطريق الرئسىّ للنقل والاتصال ، مثل المدن فى بريطانيا العظمى أو خليج پيوچت(*) Puget Sound وإذا كانت تربة الإقليم تجود بالطعام أو المعادن ، وإذا كانت أنهاره تهيئ له طريقاً هينة للتبادل مع غيره ، وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التى تصلح مرافئ طبيعية لأسطوله التجارى ، ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على الطريق الرئيسية للتجارة العالمية ، كما كانت حال أثينا وقرطاجنة وفلورنسة والبندقية — إذن فالعوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقا ، إلا أنها تستطيع أن تبتسم فى وجهها ، وتهيئ سبيل ازدهارها .

والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك ؛ فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة ، وتشريع خلقى رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هى الحال مع الهنود الأمريكيين ، ومع ذلك فإنه إن ظلّ فى مرحلة الصَّيْد البدائية ، واعتمد فى وجوده على ما عسى أن يصادفه من قنائص ، فإنه يستحيل أن يتحول من الهمجية إلى المدنية تحولا تاماً ؛ قد تكون قبيلة البدو — كبدو بلاد العرب — على درجة نادرة من الفتوة والذكاء ، وقد تبدى من ألوان الخُلق أسماها كالشجاعة والكرم والشمم ، لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذى لابد منه ، وبغير اطّراد موارد القوت ، ستنفقه فى مخاطر الصيد ومقتضيات

(*) خليج غربى الولايات المتحدة . (المعرب)

التجارة ، بحيث لايبقى لها منه شيء لوَشْي المدنية وهُدّابها ولَطائفها وملحقاتها وفنونها وترفها ؛ وأول صورة تَبَدَّتْ فيها الثقافة هى الزراعة ، إذ الإنسان لايجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزا دليوم قد لايجد فيه مورداً لطعامه ؛ فى هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة — وأعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام — ترى الإنسان يبنى لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ، ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلم كيف يعمل فى نظام واطّراد ، ويحتفظ بحياته أمداً أطول ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلا أميناً .

إن الثقافة لترتبط بالزراعة(*) كما ترتبط المَدَنيّة بالمَدينَة ؛ إن المدنيّة فى وجه من وجوهها هى رقة المعاملة(**) ، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهذب الذى هو فى رأى أهل المدن — وهم الذين صاغوا حكمة المدنية — من خصائص المدينة وحدها(†) ، ذلك لأنه تتجمع فى المدينة — حقا أو باطلا — ما ينتجه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول ؛ وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ؛ وفى المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار ؛ وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول ، يُرْهف الذكاء وتُسْتثار فيه قوته على الخَلْق والإبداع ، وكذلك فى المدينة يُسْتغنى عن فئة من الناس فلا يُطلب إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن ؛ نعم إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح ، لكنها لا تزدهر إلا فى المدن .

(*) يشير المؤلف هنا إلى الارتباط اللفظى بين الكلمتين فى الإنجليزية وهما Agriculture & Culture

(**) هنا كذلك بيان لعلاقة لفظية بين كلمتى Civilisation ومعناها مدنية ، وكلمة Civility ، ومعناها رقة المعاملة . (المعرب)

(†) كلمة مدينة حديثة الاستعمال نسبيا ، فعلى الرغم مما اقترحه « بوزول » على « چونسن » لإدخالها فى قاموسه سنة ١٧٧٢ ، فقد رفض « چونسن » أن يدخلها ، وآثر عليها الكلمة التى معناها « رقة المعاملة » Civility .

وليست تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر فى هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك ؛ قد تنهض مدنيّة فى پكين أو دلهى ، فى ممفيس أو بابل ، فى راڤنا(†) أو لندن ، فى پيرو أو يوقطان . فليس هو الجنس العظيم الذى يصنع المدنيّة بل المدنية العظيمة هى التى تخلق الشعب ، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته ، والثقافة تخلق النمط الذى يصاغ عليه . ليست المدنيّة البريطانية وليدة الرجل الإنجليزى ولكنه هو صنيعتها ، فإذا ما رأيته يحملها معه أينما ذهب ويرتدى حُلّة العشاء وهو فى « تمبكتو » ؛ فليس معنى ذلك أنه يخلق مدنيّته هناك خلقاً جديداً ، بل معناه أنه يبيّن حتى فى الأصقاع النائية مدى سلطانها على نفسه . فلو تهيأت لجنس بشرى آخر نفس الظروف المادية ، ألفيت النتائج نفسها تتولد عنها ، وها هى ذى اليابان فى القرن العشرين تعيد تاريخ إنجلترا فى القرن التاسع عشر ، وإذن فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد ، وهو أنها تجىء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البطىء بين شتى العناصر ، ذلك التزاوج الذى ينتهى تدريجياً إلى تكوين شعب متجانس نسبيا(*) .

وما هذه العوامل المادية والبيولوچية إلا شروط لازمة لنشأة المدنية ، لكن تلك العوامل نفسها لا تكوّن مدنيّة ولا تنشئها من عدم ، إذ لابد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة ، فلا بد أن يسود الناسَ نظامٌ سياسى مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حداً يدنو به من الفوضى ، كما كانت الحال فى فلورنسة وروما أيام النهضة . ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف فى طريق حياتهم ، ولا مندوحة كذلك

(†) مدينة على الساحل فى الشمال الشرقى من إيطاليا . (المعرب)

(*) قد يؤثر الدم — لا الجنس — فى المدنية بمعنى أن الأمة قد يعوقها أو يدفعها إلى الأمام كونها تنشأ عن عناصر من الناس أدنى أو أعلى من سواها ، وإنما تكون تلك العناصر أدنى أو أعلى من الوجهة البيولوچية (لا الجنسية) .

عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار . ثم لا منداوحة أيضاً عن قانون خلقى يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها ، حتى تكون هناك فى لعبة الحياة قاعدة يرعاها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها ؛ وبهذا يطّرد سلوك الناس بعض الشىء وينتظم ، ويتخذ له هدفاً وحافزاً . وربما كان من الضرورى كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق فى العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود ، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت . وأخيراً لابد من تربية — وأعنى بها وسيلة تُتَّخذ — مهما تكن بدائية — لكى تنتقل الثقافة على مرّ الأجيال ، فلابد أن نورّث الناشئة تراث القبيلة وروحها ، فنورّثهم نفعها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها ، سواء كان ذلك التوريث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين ، وسواء فى ذلك أن يكون المربّى هو الأب أو الأم أو المعلّم أو القسّيس ، لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التى تحوّل هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

ولو انعدمت هذه العوامل — بل ربما لو انعدم واحد منها — لجاز للمدنية أن يتقوّض أساسها . فانقلابٌ چيولوچى خطير ، أو تغيّرٌ مناخىٌ شديد ، أو وباء يفلت من الناس زمامه كالوباء الذى قضى على نصف سكان الإمبراطورية الرومانية فى عهد « الأناطنة » (جمع أنطون) ، و « الموت الأسود »(*) الذى جاء عاملا على زوال العهد الإقطاعى ، أو زوال الخصوبة من الأرض ، أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف ، بحيث ينتهى الأمر إلى اعتماد الناس فى أقواتهم على ما يرد إليهم متقطعاً من بلاد

(*) وباء تفشى فى أوروبا فى القرن الرابع عشر . (المعرب)

أخرى ، أو استنفاد الموارد الطبيعية فى الوقود أو المواد الخامة ، أو تغيُّر فى طرق التجارة تغيراً يُبْعد أمة من الأمم عن الطريق الرئيسية لتجارة العالم ، أو انحلالٌ عقلى أو خلقى ينشأ عن الحياة فى الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات ، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التى كان النظام الاجتماعى يقوم على أساسها ثم العجز عن إحلال غيرها مكانها أو انهيارُ قوة الأصلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسية أو بسبب ما يسود الناسَ من فلسفة أبيقورية متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدراء الكفاح ، أو ضعفُ الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء وبسبب القلة النسبية فى أفراد الأسرات التى كان فى مقدورها أن تورِّث الخَلَفَ تراث الجماعة الفكرى كاملا غير منقوص ، أو تركزٌ للثروة تركزاً محزناً ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالى . هذه هى بعض الوسائل التى قد تؤدى إلى فناء المدنيَّة ، إذ المدنية ليست شيئاً مجبولا فى فطرة الإنسان ، كلا ولا هى شىء يستعصى على الفناء ؛ إنما هى شىء لابد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، فإذا ما حدث اضطراب خطير فى عواملها الاقتصادية أو فى طرائق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملا على فنائها . إن الإنسان ليختلف عن الحيوان فى شىء واحد ، وهو التربية ، ونقصد بها الوسيلة التى تنتقل بها المدنية من جيل إلى جيل :

والمدنيات المختلفة هى بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية ، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التى تنقل تراث الآباء للأبناء ، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التى تربط الصلات بين الناس ، قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات وبذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتنا ، فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق بنا الموت ، لنُسْلِمَه إلى أبنائنا .